عنف العنونة الثانوية في سيرتي أنثى الأنهار والدانوب يعرفني(*)

م.د . قيس عمر محمد م.م. جعفر أحمد عبدالله

وزارة التربية العراقية/ المديرية العامة لتربية نينوى

(قدم للنشر في ٢٠١٩/١٠/١٤ ، قبل للنشر في ٢٠٢٠/١/٧)

ملخص البحث:

يسعى هذا البحث للكشف عن فاعلية العنونة الثانوية بوصفها مدخلا ممهدا للنص بعد العنونة الرئيسة، إذ إنها تختصر المتن السيري وتسعى لجعل العنونة الثانوية انعكاسا معنائيا للخطاب الروائي/ السيري. فالعنونة تكثف طاقة الدلالة الكلية تشكيلا وتدليلا؛ لتحيل المتلقي لدلالة كبرى تنخرط في أفق خطي عام يمكن تقسيمه إلى بنية عنفية مباشرة/ غير مباشرة، فالعنف يتخذ تشكيلات وتمظهرات تعبيرية واسعة ومتنوعة، وهذا التنوع للبنية العنفية راجع لاستطارة مفهوم العنف وممكناته الدلالية ، لينشط بوصفه خطابا تحاول الرواية السيرية تعريته وكشف أنماطه المتخفية والمتقنعة خلف اليومي والمألوف.

Secondary Addressing Violence in my Female and Rivers and Danube Biography knows me

Abstract:

This research seeks to reveal the effectiveness of secondary addressing as a paved entry to the text after the main one, as it abbreviates the body text and seeks to make the secondary addressing a moral reflection of the narrative / Siri discourse. Addressing intensifies the overall significance energy in formation and evidence to refer the recipient to a major indication that engages in a general linear horizon that can be divided into a direct / indirect violent structure. Violence takes wide and varied expressive formations and manifestations. The Siri novel stripped naked and exposed its hidden and convincing patterns behind the everyday and the familiar.

(*) أصدرت اشراقة مصطفى حامد سيرتين ذاتيتين:

الأولى: أنثى الأنهار_ من سيرة الجرح والملح والعزيمة: إشراقة مصطفى حامد، دار النسيم للنشر والتوزيع، القاهرة–مصر، ط١، ٢٠١٥.

الثانية: الدانوب يعرفني_ الوجه الآخر لسيرة الانهار: إشراقة مصطفى حامد، الآن ناشرون وموزعون، عمان– الأردن، ط١، ٢٠١٧.

المبحث الأول

ممكنات العنف

إن فهم حدود وامكانات كل مفهوم لابد أن تتحدد على المستوى المعجمي؛ ذلك أن البعد اللغوي يقدم بنية تحيط بتداعيات هذا المفهوم فالعنف هو: " الخرق بالأمر وقلة الرفق به، وهو ضد الرفق، عنف به وعليه يعنفُ عُنفاً وعَنافة، وأعنفهُ، وعنّفهُ تعنيفاً، وهو عنيف إذا لم يكن رفيقاً في أمره، وأعتنف الأمر، أخذه بعنف، وأعتنف الشيء: كرهه" [1]، فالعنف كره وحقد مضمر أو غير مضمر في التعامل مع الآخر من دون مبالاة تذكر وكسر الحواجز الاعتبارية للنظام الحياتي القائم على المودة والمحبة. وتدخل مفردة العنف في بعدها اللغوي في دائرة الترادف التي تكشف عن الأبعاد الإفهومية للعنف وتجلياته المتغلغلة في الممارسة الحياتية والثقافية بعامة، فمن ترادفات العنف: " أزعج، كدّر، تعتّف: تكدّر انزعج، عُنّف: انتهر، وتنعّف لـ : اضطرب، ارتبك، تحيّر، عنف: قسر، أكراه، قهر، اخضاع، عنوف: عنيف، شديد، قاس، صارم"[2]. إن هذه البنية الترادفية تكشف عن أبعاد العنف وتداعياته اللغوية على المستوى الدلالي، فالعنف يتخذ صيغا وأنماطا متنوعة ومتداخلة، ويمكن للعنف أن يكون فعلا خارجيا كوقوع العنف المادي/ المعنوي على الفرد مباشرة أو غير مباشرة، أو داخليا كتعنيف الذات لنفسها بشكل مادي/ معنوي.

وأما العنف في دائرة المصطلح فهو " سلوك فعلي أو قولي يستخدم القوة، أو يهدد باستعمالها لإلحاق الضرر والأذى بالذات. أو بالأشخاص الآخرين، وتخريب الممتلكات للتأثير على إرادة المستهدف وانطلاقا من هذا المفهوم يتحدد العنف بأنه الفعل الذي يمس كيان الإنسان ملحقا الضرر المادي والجسدي والنفسي والفكري والعقدي"[3]؛ هذا السلوك يتسم بالهيمنة والسطوة من طرف يمتلك القوة إلى طرف خاضع ومستكين. إن ما يميّز العنف " أنه من الناحية الظاهرية قريب من القدرة، بالنظر إلى أن أدوات العنف، كما هو حال بقيّة الأدوات، إنما صمّمت واستخدمت لهدف مضاعفة طبيعة القدرة حتى تستطيع أن تحلّ

---

[1] لسان العرب: ابن منظور، تحقيق نخبة من العاملين بدار المعارف: عبدالله علي الكبير و محمد احمد حسب الله و هاشم محمد الشاذلي، المجلد الرابع، الجزء ٣١، باب العين، ٣١٣٢.

[2] تكملة المعاجم العربية: رينهارت دوزي، ٣٢٩.

[3] الرواية والعنف – دراسة سوسيو نصية في الرواية الجزائرية المعاصرة: الشريف حبيلة، ١١.

محلّها، في آخر مراحل تطورها"[٤] . وبالتالي سوف تستثمر في كسر وتحجيم الآخر، والنيل منه باللفظ أو الضرب وغيرها من أشكال العنف.

إن العنف يتخذ عدة أنماط مباشرة وغير مباشرة يتمظهر فيها فالعنف "مصدره القوة التي تتخذ أشكالا مختلفة، وليست الشرطة أو الجيش أو السلاح فقط، إنما له أشكال أخرى متعددة يمكن البرهنة عليها بالنظر إلى المجتمع والحياة اليومية فكل تراكم للمعرفة الاجتماعية، وكل نوع من أنواع البحث والدراسة والتنميط والتصنيف ، والحكم هو صورة من صور ممارسة القوة وبالتالي العنف "[٥] فالعنف هو انعكاس لطبيعة القوة وآلية من آليات الارغام، والقسر، والإكراه، وهو أداة كل سلطة وهنا ليس بالضرورة أن تكون سلطة سياسية، وإنما السلطة بالشكل الجوهري، فالمجتمع له سلطة والتنظيم الأسري له سلطة، فكل تصنيف أو تنميط هو أداة من أدوات السلطة التي تهدف لتحقيق ضبط الأفراد على وفق محددات ومعايير خاصة، وهذا الضبط المجتمعي أو السياسي أو التصنيفي أو التنميطي لا يتم إلا وفق آلية عنفية؛ ولكن هذا العنف سيكون أحيانا مطمورا في بنية الممارسة الضابطة، وبفعل تكراره أحيانا يكون قد تحول لعادة يومية، بيد أنها تطوي تحتها عنفا وإرغاما يهدف لممارسة القوة بغية الضبط؛ ولأن الرواية هي انعكاس لطبيعة البنية المجتمعية وتمثل لخرائطها الذهنية فإنها ستكون قادرة على تقديم تجليات أفهومية عن العنف وأدواته، ويمكن للباحثين تحديد تلك الانماط والصيغ العنفية عبر الممارسة النقدية الاجرائية تشكيلا أو تدليلا وهنا سنذهب لدراسة العتبات النصية في السيرة الذاتية؛ ذلك أنها الأقرب لمثل هذا التمثل والانعكاس لفاعلية العنف وتمظهراته النصية، فالعتبة الروائية حين تتخذ من تجليات العنف عنوانها سيكون هذا انعكاسا لطبيعة الهيمنة والفاعلية التي يتمتع بها العنف كمفهوم متغلغل في البنية الذهنية للمجتمع.

العتبة والفاعلية الإشارية

تُعد العتبات النصّية من المداخل الأساسية والإشارية المُمهدة للولوج الى النص، فهي بمثابة مدخل تعريفي وتفهيمي لإيضاح نبذة مختصرة عبر النص سواء أكان للعنوان الرئيس أم للعنونة الثانوية التي تكون بمثابة حلقة الوصل، فـ " العتبات هي مدخل كل شيء وأول ما يقع عليه البصر، وتدركه البصيرة، إلا أن ما يجب لفت الانتباه إليه هو ضرورة عدّها نصوصاً انتقالية نحو الأهم، ألا وهو النص المركزي،

[٤] في العنف: حنّة أرندت، ٤٠-٤١.

[٥] الرواية والعنف – دراسة سوسيو نصية في الرواية الجزائرية المعاصرة: ١١.

ومن ثم فإن أفضل طريقة للإفادة من إمكاناتها الفنية تكمن في ضرورة التعامل معها في مستواها الخادم للنص المركزي، وليس في صورتها التي تتحول فيها إلى موضوع معزول عن النص"[٦] فهناك صلة وثيقة ما بينها والنصوص، إذ نستطيع أن نفهم شيفرة العنوان من النص عبر العلاقة التبادلية بينهما، و" يسعى النقد المعاصر اليوم إلى الاهتمام بما يسمى مداخل النص، أو عتبات الكتابة بعد أن ظل إلى وقت قريب يولي اهتمامه بالقارئ على حساب النص، ويرجع هذا الاهتمام إلى ما تشكله هذه المداخل من أهمية في قراءة النص والكشف عن مفاتنه و دلالته الجمالية، هذه العتبات هي علامات لها وظائف عديدة، فهي تخلق لدى المتلقي رغبات وانفعالات تدفعه إلى اقتحام النص برؤية مسبقة في غالب الأحيان"[٧]. وتهيئ صورة مسبقة أيضاً عن النص في ذهن القارئ، وتجعله يؤوّل بعض الشذرات التي لربما تنسجم مع رؤيته المتخيلة أو تعترض. و " العتبات تُعدّ فضاءات لإجراء المفاوضات عبرها ومن خلالها يستضيف النص ضيوفه، أو يمتنع عن الضيافة، ومن هنا أثرها الحاسم في نوعية القراءة المنجزة. . . بما لها من تأثير مباشر على القراء. . بمعنى منحهم تصوراً مسبقاً للنص يكون له تأثيره على نوعية إدراكهم له" [٨]. وفي ذلك سوف تنشطر الذاكرة الى احتمالات متعدّدة عبر التصوّر والتفسير الموازي للنص او المخالف. ويبدو الإشتغال العتباتي له جمالية تختزل النص بعلاماتها الدلالية وتشفيرها الغامض بحسب العناوين الموظّفة توظيفاً ملائماً للنص. وبناء على ما تقدّم " يمكن القول ان (العتبات النصية) ليست سوى جزء من نظام معرفي عام يطلق عليه (النص الموازي) وقد تداخل هذا المصطلح مع مصطلح (النص المحيط) ليعنيان مجموعة نصوص يتعلق وجودها ودلالتها بوجود نص رئيسي تعمل تلك بوصفها بُنى افتقارية تستمد فاعليتها بالاتكاء على ذلك النص ومؤثرة في الوقت نفسه في توجيه دلالته كـ (العناوين بأنواعها والإهداءات ولوحات الأغلفة والمقدمات . . . الخ). "[٩]، لأن فاعليتها ستتجاوز كل الرؤى وتخترق الاستنتاجات القرائية.

---

[٦] عتبات الكتابة في الرواية العربية: د. عبدالملك اشهبون، ٥٤ .

[٧] العتبات النصية_ قراءة في عناوين الديوان الشعري العربي المغربي: حسن الرموتي، موقع مغرس على شبكة الانترنيت، ٢٠٠٩/٦/١٨.

[٨] في نظرية العنوان(مغامرة تأويلية في شؤون العتبة النصية): د. خالد حسين حسين، ٤١ .

[٩] العتبات النصية في شعر عبدالوهاب البياتي ونزار قباني، اطروحة دكتوراه: جاسم محمد جاسم خلف، بإشراف: أ. د ابراهيم جنداري جمعة الجميلي، جامعة الموصل، كلية التربية، قسم اللغة العربية، ٢٠٠٧، ١٧.

المبحث الثاني

اولا: استراتيجية العنف في العنونة الثانوية لـسيرة أنثى الأنهار(من سيرة الملح والجرح والعزيمة)

سنعمد إلى انتخاب عتبات فرعية يمكن لها أن تكون كشافا يضيء الدلالة الكلية للعنف بوصفه خطابا وثقافة سائدة ومهيمنة في المتن السيري النسوي، وهذا الانتخاب سيكون بشكل موضوعي يحاول الامساك بالموضوعية التي تحملها العنونة الثانوية والمعنى الذي تقدمه سردية المتن المنطوي تحت هذا العنوان الفرعي، وستكون العنوانات الثانوية الأتية هي مدار التحليل وهي:

- **اعتراف لوهج السيرة**
- **على متن الحريق**
- **حشرجة الموس وبدايات الترويض**
- **بدايات التشرد**
- **العمل السياسي في الجامعة الاسلامية**

(اعتراف لوهج السيرة) [١٠]

يأتي العنوان الثانوي الداخلي (اعتراف لوهج السيرة) أول عنوان بعد العنوان الخارجي والشكر ويشكل مدخلاً كاشفا لطبيعة المشغل السيري وخصوصيته المكانية والشخصية، ولعل مفردة (اعتراف) تحيل في بعدها المباشر إلى السرد الإعترافي الوثائقي الذي تتخذ منه الكتابة السيرية نمطا سرديا كصيغة تعبيرية وشكل معين من التسريد الإعترافي، والاعتراف هنا مصحوب بمفردة ثانية هي (الوهج) والوهج لا يولد إلا عبر النار بوصفها تمنح وهجا كتتويج للنار، ويمكن لنا تحديد طبيعة العلاقة التبادلية بين المفردتين بالاعتراف والوهج من خلال المتن السردي لهذا العنوان أو العتبة الداخلية، فالكاتبة شحنت العنوان بكثافة ايحازية لفعل العنف وكشفت عن تفاصيله في المتن المنطوي تحت هذا العنوان " **اثنان وعشرون عاما على صدر شمعة الدانوب الباكية، تبكي وتضيء الطريق منذ أن قلت لها أنا ابنة الشمع والحريق** " [١١] هذا المقطع من المتن المندرج تحت العنوان يساعدنا على كشف فعل العنف ونسقه المتخفي في العنونة الثانوية، وكأول عتبة ضمن المتن السردي السيري فالكاتبة هنا توثق عبر سردها الاعترافي نسق العنف ومداه الزمني المتخفي خلف العنونة للمتن السيري، فهي ابنه الشمع

[١٠] أنثى الأنهار_ من سيرة الجرح والملح والعزيمة: إشراقة مصطفى حامد، ٩.

[١١] أنثى الأنهار_ من سيرة الجرح والملح والعزيمة: ٩.

والحريق، وهذا التعبير عن الوقوع تحت عنف بوصفه ثقافة وممارسة انعكست على مدى سنوات على الكاتبة.

إن فعل العنف الذي يتخذ من اللغة شكلا سرديا يمنح الكتابة السيرية بعداً دلائلياً يمكن معه الكشف عن المهيمنات العنفية وتشكلاتها السردية، فالسرد الاعترافي هو فعل عنف جمالي يتخذ من الكتابة كشفا للداخل وتشميسا للذات لإشفاء الجروح التي خلّفها العنف.

(على متن الحريق) [١٢]

تشكل هذه العنونة العتبة الثانية في المتن السيري وهي عتبة تعمل على منح المتلقي بعدا يتيح له الرؤية البصرية بشكلها المجازي: على متن الحريق فجملة على متن الحريق تفيد بتحييد جغرافي يتموقع فوق وعلى الحريق، بوصفه رافعة عنفية تحيط بالشخصية، ولعل التسريد لهذا الحيز المكاني داخل المتن المندرج، ويكشف عن ممارسة عنفية على المستوى المعنوي، فالشخصية الساردة هنا تقدم عنفا داخليا تتعرض له بشكل مباشر وتستدعي صور الماضي وكأنها سياط تكتوي بها بفعل التذكر وهي تغادر أرض الوطن نحو مكان آخر، والعتبة هنا تحيلنا الى عنف معنوي داخلي مكثف وموجز بشكل سردي توصيفي ولربما استخدام شبه الجملة هنا يمنح المتلقي اشارة مرجعية وتشكل له طوبوغرافيا تمثل العنف المعنوي الداخلي، وإن كان الحريق يمتلك عنفا مباشرا إلا أن الاستخدام المجازي في تركيبة الجملة هنا يكشف عن سياق عنفي معنوي يتولد في داخل الشخصية وعالمها الجواني، ومعلوم أن العنونة تمنح القارئ مناخا خاصا بالمتن المندرج تحتها، فهي بمثابة كشاف يتطابق أو يتناقض مع المتن المندرج تحته، والمتن السيري المندرج تحتها يحيل القارئ لمناخ نفسي عنفي يشخص بقوة في لحظة مغادرة الوطن، ويكشف عن ذكريات مرة تحضر بقوة وكل هذا الاستحضار يعمل على خلق مناخ من العنف المعنوي داخل الشخصية الروائية، وهذا ما تسعى اللغة العتباتية إليه هنا على الأقل على المستوى التشكيلي والتدليلي.

(حشرجة الموس وبدايات الترويض) [١٣]

إن تشكيل العنونة هنا يعد دالا عنفيا مباشرا فالعتبة تتشكل من مفردة تمتلك ذاكرة مرتهنة لسياق الموت، فالحشرجة تستخدم في اللغة العربية غالبا لتوصيف لحظات النزع الأخير وهي غرغرة الروح أو ترديد الصوت داخل الفرد قبيل موته بلحظات أو هنيهات من هنا نجد الكاتبة تحيلنا على عنف العتبة لطبيعة عنفية مباشرة ومادية، وإذا حاولنا تفكيك التبادل القائم بين المفردات فسنجد أن

[١٢] أنثى الأنهار_ من سيرة الجرح والملح والعزيمة: ١٢.

[١٣] أنثى الأنهار_ من سيرة الجرح والملح والعزيمة: ٢٥.

آليات البلاغة نقلت العنف من موقعه في الجسد نقلته للموس، تحوّل الى عنف وهذا التبادل المكاني ينقل الدلالة من مجالها الحقيقي إلى مجالها الاستعاري، فثمة عنف تم على جسد طفلة ثم تحول لعنف وألم ارتدادي انتقل من الجسد الطفولي إلى الموس وهذا يشير لطبيعة العنف وحجم الألم الذي يولده العنف المادي المباشر على الجسد الطفولي، فالحشرجة للموس هي نتيجة ارتدادية للعنف الممارس على الجسد الطفولي، فدلالة (الحشرجة) على المستوى اللغوي المعجمي والسياقي تحيل القارئ إلى القوة والعنف والتوجع واذا حاولنا قراءة العنونة بشكل كامل وتأملنا المعنى السياقي للعتبة كعلاقات تبادلية بين مكوناته سنجد أن مستوى العنف يرتفع بدرجة عالية بشكل مباشر، فالموس أو الشفرة الحادة التي قامت بعملية ختان للشخصية الساردة تكشف عن مدى العنف وفاعليته التي بقيت متواصلة رغم مرور سنوات طويلة على عملية الختان التي تسترجعها الشخصية هنا، فالذكريات القادمة من الماضي الطفولي تتمتع بطاقة حسية عالية وتكون قادرة على منح الذاكرة بعدا ودفقا حسيا يمكن للشخصية من خلاله تحسس الألم والعنف من جديد، لاسيما العنف الممارس على الجسد في الطفولة .

إن العنونة الثانوية تستعيد عبر تشكلها التبادلي/ البلاغي علاقات العنف المرتبط بالطفولة وزمنها وتذهب الشخصية إلى إعادة تفكيك انساق العنف الممارس على الأنثى لاسيما في عملية الختان. إن العنونة تحاول تقديم مشهد درامي مؤثث بطاقة ايحائية عالية تكشف عن فداحة العنف المادية الممارسة على الجسد . فالعنونة بشكلها النهائي في شقها الثاني (بدايات الترويض) تكشف أيضا عن ممارسات مادية لطبيعة الجسد فثمة ترويض للطبيعة وتقليم لممكاناتها الفطرية إنها عملية محو للبعض من الجسد، وهذا المحو القائم على الجسد لن يتم دون عنف مادي يتبعه ترويض يخلف ألما، وقلقا، وخوفا، وهو نتاج الممارسة العنفية المباشرة على الجسد، إن العنونة هنا تتمتع بطاقة عنفية عالية وتجعل المتن السيري المندرج تحتها، بمثابة دليل واصم على كمية العنف والوجع الذي تسبب به هذا العنف المجتمعي بفعل العادات والتقاليد، ونلمح في المتن السيري أن الكاتبة تشير إلى أن هذا الطقس تحول بفعل التكرار والقبول في المجتمع السوداني إلى طقس شعائري، يتم الاحتفاء به بالألم عبر فعل الختان العنفي، وهذا بدوره يكشف عن سياق التحول لدلالة العنف في هذه الممارسات البدائية، فثمة انتاج احتفائي بالعنف، فالختان طقس مصحوب بفرحة المجتمع المحيط بالأنثى ولكن الأنثى تعيش حالة من الألم نتيجة العنف الشعائري .

(العمل السياسي في الجامعة الإسلامية) [١٤]

يتخذ العنف صيغا وأشكالا متنوعة ومتباينة ولا غرابة أن يكون الملفوظ السردي المباشر المفرغ من الجماليات البلاغية محملا بدلالات عنفية تشكل عمقا ووجها ثانيا غاطسا لهذا الملفوظ السيري. في هذه العنونة الثانوية نجد أن بعض المفردات تمتلك ذاكرة مجتمعية لا يمكن لها أن تحيل إلا إلى نوع من الاكراهات والارغامات فمفردة (سياسي/ اسلامي) تشكل حقلين متجاورين ومتداخلين وعلى الرغم من أن الإسلامية تأتي هنا كتوصيف لنوع الجامعة إلا أنها تخفي تحتها طابعا تلازميا مع السياسي، ولعل العنف الشائع في مجتمعاتنا العربية بوصفها مجتمعات ترتهن لحكومات ذات طابع شمولي دكتاتوري النزعة، فإن أي عمل سياسي من قبيل التنوع الحزبي وتعدد الأيديولوجيات يعد ضربا من الأحلام، من هذا المنطلق نجد أن الخطاب الروائي العربي بشكل عام حاول التصدي لنقد العنف السياسي الذي يتمثل بواحدية الحزب والممارسات السلطوية الناتجة عنه؛ لهذا نجد أن العتبة الروائية ترتهن لوعي جمعي يفهم آليات القمع، والبطش، والتنكيل، التي تعد من آليات السلطة السياسية ، وهذه العتبة تطوي في بنيتها العمية موقفا يسعى لتعرية مواضعات هذا العنف وكما أسلفنا فإن العنونة الثانوية تحاول أن تشكل نسيجا مع المتن السيري المندرج تحتها، فثمة اتصال وتعالق بينها على المستوى التشكيلي والتدليلي، إذ تشكل حجر زاوية تكشف عن نسق العنف السياسي، وهي دلالة جزئية أو بنية عنوانية صغرى تعمل في فلك البنية العنوانية الكبرى والعنونة الثانوية تعمل في أفق عام يشير للعنف والألم المادي والمعنوي الذي يسهم بتعيين المعنى الكلي لدلالة العمل. العنونة الثانوية تعمل بوصفها مؤشرا على طبيعة الخوف والرهبة التي يخلفها الخوض أو الحديث أو الممارسة السياسية في البلاد العربية، لاسيما إذا كانت مرتبطة بأحزاب دينية، ولربما يجد القارئ أن العنوان الفرعي هنا لا يحيل للمعنى المباشر للعنف؛ لكن الكاتبة تعول على المعنى الجمعي لمفردة سياسة وجامعة اسلامية، فثمة صمت وتوافق خفي بين الكاتبة والقارئ على اعتبار العتبة بهذا العنوان المباشر شفرة مشتركة عربيا على الأقل، فالعمل السياسي الحزبي القائم على التعددية والاختلاف الأيديولوجي شبه منعدم في البلاد العربية إلا ما ندر وهذا يترتب عليه إرغامات تنسحب على الصوغ السردي لطبيعة العنوان وتقديمه، إذن نحن أمام عنف مستتر وخفي يجري في ثنايا المتن السيري؛ لكنه عنف صامت وقاهر لا يمكن البوح به، وإذا ربطنا المتن السيري المندرج تحت العتبة المذكورة سنجد هذا المعنى الإشاري ، فالكاتبة تكشف عن طبيعة هذا العنف

[١٤] أنثى الأنهار_ من سيرة الجرح والملح والعزيمة: ٩٦.

والإرغام والإكراه في الحكم الشمولي الاستبدادي، والكوارث التي سببها على المستوى المجتمعي والفردي: العمل السياسي بالجامعة الاسلامية إنه عنف تعاقدي مستتر هو عنف سياسي لا يمكن تسميته بشكله الصريح ؛لهذا صار العنوان الفرعي هنا مكتفيا بذاته منغلقا على نفسه بشكله المباشر؛ ولكنه في العمق دلالة مباشرة لطبيعة الخوف والعنف الذي تولده اللغة وهي تقدم صورة مباشرة عن العنف، من خلال المعنى التعاقدي/ السياقي/ الثقافي المنتج والمولد للعنف والخوف.

(بدايات التشرد) [١٥]

تكشف العنونة الثانوية عن البداية الإنجازية لسيرة الكدح الطويل للساردة بوصفها طالبة نالت درجة الشرف بتخرجها وتميزها عن أقرانها، وهذه العتبة تختصر بدلالة حياة طويلة مرت فيها الشخصية، لتتحول فيما بعد (لمتشردة) تحاول ايجاد حياة جديدة بعد التخرج؛ لكنها تجد نفسها في رحلة شاقة ومنهكة من التشرد، العنونة هنا تتحرك كعنوان فرعي للمتن السيري يحاول تلخيص وتكثيفه المعنى الدلالي لكن بشكل تضادي، فالبداية عادة ما تكون محملة بذاكرة ايجابية وهي الشروع بشيء جديد؛ لكن البنية التركيبية للعتبة تكشف عن سخرية لاذعة: بداية التشرد [١٦] وهي تركيبة تطوي تحتها جمر التجربة وعنف الممارسات المجتمعية لمؤسسات الدولة التي بدورها تمارس عنفا عبر فسادها وتخلفها وعدم لحاقها بركب العالم المتقدم أو العدالة الاجتماعية، فالعنونة تمتلك حمولة عنفية على مستوى التركيب والدلالة، فالتشرد يحيل القارئ إلى عالم خاضع لاشتراطات غير انسانية، فالتشرد بأبسط معنى لغوي هو أن يهيم الانسان على وجهه لأنه بدون مأوى، من هنا يمكن لنا اكتشاف المعنى السياقي للعنف بوصفه نتيجة معادلة ساخرة هي التخرج (بدرجة الشرف) ومن ثم بداية عالم جديد هو الشروع بالتشرد في رحلة البحث عن مأوى وعمل ، نلمح العنف بشكل خيطي متغلغل في الصورة الاجمالية للتركيبة العنوانية.

إن العنونة الثانوية جاهزة للاتصال بالمعنى السيري العام وتغيا الدخول لنسيج المعنى الكلي للسيرة فهي ليست منفصلة عنه، فالعنونة تعمل بوصفها بؤرة جامعة لمساقط العنف وتجلياته الأفهومية داخل المتن السيري بشكل عام تشكيلا وتدليلا، فالعنف بشكله الإجمالي كنسق ثقافي يتشكل ليس بالضرورة بشكل مباشرة إنما قد يكون عنفا بفعل التكرار تحول لعادة أو ممارسة يومية مألوفة يتسرب عبر الحياة اليومية والمهمل الحياتي؛ لكنه يطوي تحته عنفا من أجل

---

[١٥] أنثى الأنهار_ من سيرة الجرح والملح والعزيمة: ١٢١ .

[١٦] أنثى الأنهار_ من سيرة الجرح والملح والعزيمة ١٢١ .

العيش أو من أجل تحقيق الذات وهويتها، وثمة عنف غير مباشر وغير مرئي وهذا العنف هو الذي تسعى اللغة الروائية لإبرازه وتعرية أنساقه المستترة، لاسيما في الرواية السيرية الأنثوية التي تتقوم بالسرد الإعترافي القائم على المفاصلة الإجناسية على المستوى البيولوجي .

ثانيا: تشكلات العنف في العنونة الثانوية لسيرة الدانوب يعرفني _الوجه الآخر لسيرة الأنهار:

(وجع الروح – زلزلة الأكتئاب) [١٧]

تتشكل العنونة الثانوية من عتبة كبرى وعتبة صغرى تشذيرية، وتعمل العتبة الصغرى على منح العتبة الكبرى بعدا مشهديا واصفا لطبيعة العنف الداخلي الذي يتكون على هامش التذكر، فالوجع حمولة عنفية مستترة وهي نتيجة تراكمية ناجزة للعنف، بمعنى أنها دال على تشكلات عنفية أدت لأنوجاد الوجع، وكما أسلفنا فطبيعة العنف وممكناته متنوعة فهذا العنف الذي تطويه العتبة النصية الكبرى، يحيل لطبيعة عنفية داخلية/ معنوية، والسؤال الذي يتشكل هنا كيف يتشكل الوجع في الروح؟ والجواب لابد من مقدمات معنوية أو مادية تقود الذات الساردة لهذا التموقع الدلالي الذي يعيد بناء مواضعات العنف وتائجه على المستوى السيري، فالسيرة بوصفها سيرة نسوية ترتهن لخطاب روائي سيري نسوي متنوع وكبير وهذا يجعل السيرة رهينة لخطاب محيطي أكبر وهو المتن السيري النسوي بعامة، وهذا المتن يسعى لتحطيم مواضعات التراتب الاجناسي، ويعمل على تعرية العنف الممارس ضد الأنثى ، هذه ببساطة خصائص في المتن السيري الأنثوي، والسيرة المدروسة هنا تنخرط بشكل كامل في هذه الآفاق السيرية وتعيد انتاج رؤيتها بشكل خاص؛ لكن ايقاع المواضيع ذاته والعنف وتعريته من هذه المواضيع التي تدور في فلكها الرواية السيرية الأنثوية ، ولا غرابة أن نجد أن شعرية وتوتر العنونة الثانوية، محتشدة بدلالات عنفية مباشرة أو غير مباشرة، فالمتن السيري المندرج تحت هذه العتبة الداخلية يفتح المخيلة ويحررها من قيدها، ويدفع بها نحو إعادة استذكار كل ما هو مؤلم، وموجع، ومزلزل، ومحطم، موتى وأناس غابوا وأحبة تفرقوا،. . والخ ذكريات تستدعيها المخيلة عبر ممارسة نوع من العنف الذاتي، فالعنف يتحول من فعل خارجي بفعل شيوعه اليومي في يوميات السيرة يتحول لممارسة وثقافة شخصية، تمارسها الكاتبة على ذاتها دون وعي، و نجد أن العتبة الصغرى التشذيرية تعيد منح مشهد العنف بعدا دراميا تشخيصيا يصف عنف الوجع الذي يعصف بالروح فهو (زلزلة)

[١٧] الدانوب يعرفني_ الوجه الآخر لسيرة الأنهار: إشراقة مصطفى حامد، ١٢١.

بمعنى انها تعيد وتفكك كل تركيب، وتسحب الذات من بعض الثبات والسكون وتجرها نحو عالم مفكك وقلق ومضطرب، وكل هذا يتم في الروح التي تقفل مدار المعنى على الألم النفسي الذي ينطلق من الداخل، ويرتد إلى الداخل بفعل عنف عكسي تستدعيه الكاتبة عبر فعل الكتابة .

(الوعي الفاعل لوني في مواجهة العنصرية) [١٨]

تشكل العنونة مفصلا مهما في تحديد نمط من أنماط العنف الدلالي، فاللون هنا لا يحضر بوصفه شيئا أو مادة تكوينية محايدة، إنما يحضر بوصفه هوية عرقية وهوية جغرافية ، وهذه الهوية اللونية الدامغة تشكل وصمة لحاملها، فثمة تمايز لوني يعيشه العالم (أسود/ أبيض) هذه الثنائية التي ترتهن لذاكرة تاريخية معبئة بالتمييز العرقي والجغرافي، وهذا التمييز اللوني هو جزء من الذاكرة العنصرية، والعنونة هنا تستفتح مداراها التشكيلي والمرجعي من خلال تقديم مدى العنف الواقع على الكاتبة، فالكاتبة سودانية الجنسية ومعلوم أن غالبية المجتمعات الإفريقية تصطبغ ببشرة سوداء وهذا اللون وحده كفيل بمنح القارء أو المتلقي أو الرائي، تصورا جغرافيا وتصورا عرقيا قائما على التمييز بين الناس على اعتبار أن هناك عالما أولَ وعالما ثانيا وعالما ثالثا، وافريقيا تصنف على أنها من دول العالم الثالث، فالكاتبة هنا تدرج تحت العنوان تلك الفداحة التي تعمل على تشكيل مفاصلة لونية مجتمعية، لاسيما بعد هجرتها للعالم الأول (أوربا) . إن هذه التصنيفات هي تصنيفات اقتصادية، وسياسية، وصحية، وتعليمية، بمعنى أنها تصنيفات توحي أنها مرتهنة للمستوى العلمي والاقتصادي للدول والتشكلات السكانية القارية؛ لكنها تطوي تحتها مفاصلة عرقية سببها اللون والتعامل بدونية مع كل ذي بشرة سوداء أو ملونة، فالعنوان هنا يفتح الدلالة على مصراعيها ويدفع بطاقة المعنى المطمور خلف الصوغ السردي. إن العنف المستتر هنا كنسق ثقافي يتموقع خلف التركيبة اللغوية على مستواها التركيبي، فالعتبة تنتهي (العنصرية) بينما تتموقع (في مواجهة) في وسط البنية التركيبية، بمعنى آخر يمتلك العنوان هنا صورة عنفية تتمثل بالمسافة الفاصلة في المواجهة بين اللون والتصورات العنصرية اللونية والجغرافية معا، فالعنونة هنا تجنح نحو بناء معنى يقدم مسيرة من العنف التي تعرضت لها الكاتبة في سيرتها وهي تروي تفاصيلها في بلاد المهجر.

إن العنونة الثانوية: الوعي الفاعل لوني في مواجهة العنصرية تحيل المتلقي لفعل العنف وهو فعل عنفي يمتد بين المسافة الفاصلة (لوني) و(العنصرية) فما بين المفردتين ثمة زمن طويل من العنف تم فيه ممارسة كل أنواع العنف اللفظي والمادي، ففعل المواجهة

[١٨] الدانوب يعرفني_ الوجه الآخر لسيرة الأنهار: ١٦٩ .

يكشف عن الألم وفاعلية هذا العنف المتوغل في ذات الساردة بسبب لونها مما يسبب لها عنفا وألما يعمل على تشكيل عائق أمام الذات الساردة.

(الحوار لا التطرف بين كوستي وفيينا يعوي الحنين) [١٩]

تتخذ العنونة الثانوية بعدا تشذيرياً شارحا يسعى لتجسير المعنى المراد تقديمه بشكل مباشر، و نجد أن العتبة على اعتبارها متكونة من مستويين يتشكل الأول على وفق مبدأ تضادي (حوار/ تطرف) وهذا التكوين الذي تتموقع فيما بينه (لا) التي تعمل على النفي والنهي والايقاف والحد والمنع، تشكل أيقونة تعمل على إيجاد مساحة تقوم على الفصل بين مفهومين أو معنيين (حوار/ تطرف) وكذلك تعمل على فك التداخل بينهما، فالإختلاف القائم بينهما كبير وجلي والكاتبة هنا تشكل لنا عتبة نصية فرعية أو داخلية مهمتها الكشف عن آلية عنفية وممكنة من ممكنات العنف بوصفه انتقالا من اللغة إلى الفعل أو الممارسة الفردية أو المجتمعية، فالعنف هنا يتخذ شكلا خطابيا تتم ممارسته عبر فعل التطرف القولي الذي يتحول لاحقا إلى فعل وثقافة مهيمنة، تعمل على إزاحة وخنق حدود الأفراد بفعل سلطة العنف الخطابية والفعلية.

إن وظيفة العنونة الثانوية التشذيرية التفسير والتدليل عن العنونة الأم أو الأساس **(بين كوستي وفيينا يعوي الحنين)** وكوستي هي المدينة التي نشأت فيها الكاتبة وهي في السودان وفيينا هي موطنها الثاني وموقع حياتها الجديدة **وبين هاتين الحياتين/ المكانين** هناك عنف واقع عنف زمني خطي يتمثل بالمدّة الزمنية الطويلة التي مرت بها الكاتبة وهي في الغربة (فيينا) في هذه المسافة الزمنية التي اتاحت للكاتبة العودة مرة لزيارة كوستي مكان مولدها وتكونها، ترجع الكاتبة بالعنف الذي يخترق هويتها ووجودها عبر فعل التذكر والاستعادة لمرافق الصبا والاصدقاء في المدرسة وكل تفاصيل حياة الكاتبة، هذه الزيارة تشكل ألما خارجيا يقع على الكاتبة فالفرق بين المكانين كبير والقلب يريد مكانا يختلف عن المكان الذي يطلبه العقل، هذا الجدل الصاعد بين العاطفة والعقل هو عنف نفسي يتشكل في العالم الجواني للشخصية وهي تسرد هذه التفاصيل التي تعمل على اضاءة العنونة الثانوية الشارحة. إن العنونة هنا تعيد بناء مشاهد العنف الجواني للكاتبة بفعل عوامل الحنين والغربة والعاطفة التي تتحول لسوط يجلد الذات المستذكرة بفعل خضوعها لهيمنة عاطفية في بعض من لحظات الدفق العاطفي في بلاد المهجر، فالسيرة بوصفها خطابا يعلي من الفردية السردية ووقائعها وتهويماتها وسيخلق لنا عنفا فنيا على المستوى العتباتي،

[١٩] الدانوب يعرفني_ الوجه الآخر لسيرة الأنهار: ٢٣٨.

وعنفا على مستوى المعيش السردي بوصفه وقائع **(تعوي بالحنين)** في داخل الذات الساردة، فهذا العواء هو المسافة الممتدة بين فعل التذكر القائم بين **(كوستي/ فيينا)** وهذه المسافة ستكون هي محور العنف الناتج عن هذا التذكر الموجع، فالكتابة السيرية لا تتبنى العنف بوصفه خطابا، وإنما تهدف للكشف عن أنماط وصيغ وتشكلات العنف، فالسيرة الذاتية هنا توجه نقدا عبر الممارسة السردية للوقائع العنفية؛ لهذا نجد العتبات النصية محتشدة بمفردات تحيلنا إلى العنف بوصفه بنية ذهنية متداولة في مجتمعاتنا والمجتمعات الغربية.

(بيت الغربة) [٢٠]

تتشكل العنونة الثانوية بيت الغربة من لفظة (بيت) وهي نكرة مفردة في المستوى النحوي وقد اضيفت النكرة الى (الغربة) المعرّفة بأل التعريف فصارت معها معرفة؛ ولعل هذا التحليل الاسنادي لطبيعة العلاقة بين النكرة والمعرفة ومستوى التضايف بينهما يكشف عن بنية تضادية بين التنكير والتعريف، فالعنوان الفرعي هنا يخلخل أفق المعنى؛ ذلك أن المدى الدلالي المولد من (الغربة) يتمتع بقوة كبيرة وضاغطة مقارنة بمفردة (بيت)، ونجد أن هذا التضايف يكشف عن طبيعة المحرك الدلالي للعنونة الثانوية وهو العنف الناتج من بيت وغربة، فمعلوم أن الغربة تمتلك سلطة دلالية بفعل تعريفها وهي محاولة لاستخراج العمق المعنوي للعنف من التركيبة العنوانية، فالغربة هي نتاج نبذ مجتمعي قائم على آليات عنفية طاردة فالغربة التي تتشكل على المستوى الداخلي للكاتبة هي عتبة أولى للغربة ومن ثم تولد الطبقة الخارجية من الغربة وبنياتها المشكلة للعنف الخارجي المولد من الممارسات المجتمعية الغربية تجاه المهاجرين بوصفهم أغيارا وأغرابا.

إن المتن السردي المندرج تحت العنونة الثانوية يحيل القارئ لبعد تاريخي محمل بحمولات تاريخية عنصرية وكفاح المهاجرين من أجل حقوقهم الانسانية، كذلك تشير الى طبيعة هذا البيت بوصفه قديما وفي هذا الحي ثمة وصم بالفقر، فمنه انطلقت حركات كفاحية طويلة، فالعنوان الفرعي محمل بدلالات العنف بوصفه خطابا مكانيا و تاريخيا، وهذا ينعكس على العتبة الثانوية وعنونتها بشكل واضح، فتجليات العنف أحيانا تستلزم مسافة زمنية عبر عملية التسريد، واندراجها في زمانية خطية يوضح طبيعتها بوصفها محيطا يطوق الكاتبة ويقيد فاعليتها. إن النص الروائي هنا يسعى عبر تسريده للعنف وتمظهراته وأبعاده، يعمل من الداخل على تعرية وكشف الفداحة التي يمارسها الأفراد والمجتمع بشكل مباشر أو غير مباشر، فالعنف هنا يتعرض لتعرية دوافعه وممكناته عبر تسريد

[٢٠] الدانوب يعرفني_ الوجه الآخر لسيرة الأنهار: ٢٥٩.

العنف ، فالرواية السيرية تقترب كثيرا من ميدان الحقيقة والموضوعية وهذا يجعلها أصدق فنيا؛ كونها تقدم ممارسات حية تعيشها الكاتبة على أرض الواقع وعبر وقائع يتضمنها فعل السرد . إن العنونة الثانوية تضيء مساحات من العنف عبر تشكلها التركيبي والدلالي وتقدم نوعا من الغربة المضاعفة للكاتبة، فغربة البلاد الأوربية من جانب وغربة الذات عن محيطها ثم يتبع هذا فعل التغريب المجتمعي عبر العنف الممارس ضد المهاجرين والغرباء في أوروبا .

النتائج

- تمتلك الرواية السيرية القدرة على الإمساك بممكنات العنف – على اعتباره– بنية ذهنية متشكلة ومترسبة في اللاوعي، وتتمظهر هذه الممكنات العنفية عبر التسريد الوثائقي الذي تستدعيه الذاكرة؛ ذلك أن الرواية السيرية تقوم على سرد/ ذاتي اعترافي وهذا يجعل قدرته على كشف فاعلية العنف أكثر موضوعية.
- كشفت الرواية السيرية عبر عنونتها الثانوية عن ممارسات عنفية مضادة، فالساردة تقع في إعادة انتاج العنف ضد ذاتها، وهذا يتم عبر فاعلية تكرار العنف اللفظي والمعنوي، فتكرار العنف المعنوي يقود الأفراد للوقوع تحت هيمنة التكرار الخطية، ويفقد العنف معها ندرته فيتحول لعادة وممارسة يومية مألوفة.
- تشكلت بعض العنوانات الثانوية من مفردتين مثل (بيت الغربة) هذه التركيبة تخفي ما بين (بيت_ غربة) مسافة زمنية من العنف، وهذا العنف هو عنف متواصل يتموقع في هذه المسافة البينية الصامتة، وهو مساحة من الصمت التي تتخللها آليات عنفية متواصلة تقع على الذات الساردة ومحيطها الحميم.
- تكشف العنوانات الثانوية عن قدرة العنونة الشذرية الشارحة والموصفة على تقديم خارطة دلائلية توحي بهيمنة العنف بوصفه نسقا ثقافيا، سائدا في البنية الذهنية الذكورية والمجتمعية المحيطة بالكاتبة، وهذا يعكس فاعلية وقدرة المتن السيري، على الانعكاس في مرآة العنونة الثانوية وبعدها التشذيري تشكيلا وتدليلا.

المصادر

- تكملة المعاجم العربية، تصنيف: رينهارت دوزي، ترجمة: د. محمد سليم النعيمي، مراجعة: جمال الخياط، الجزء السابع، وزارة الثقافة والاعلام، دار الرشيد للنشر، ط١، الجمهورية العراقية، ١٩٩٧.
- الرواية والعنف – دراسة سوسيو نصية في الرواية الجزائرية المعاصرة، الشريف حبيلة ، عالم الكتب الحديث، اربد– الاردن، ط١، ٢٠١١.
- عتبات الكتابة في الرواية العربية : د. عبدالمالك اشهبون ، دار الحوار – سوريا ، ط١، ٢٠٠٩ .
- في العنف، حنّة أرندت، ترجمة: ابراهيم العريس، دار الساقي، لبنان–بيروت، ط١، ١٩٩٢.
- في نظرية العنوان (مغامرة تأويلية في شؤون العتبة النصية) : د. خالد حسين حسين ، دار التكوين – دمشق ، ط١ ، ٢٠٠٧ .
- لسان العرب، أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، تحقيق نخبة من العاملين بدار المعارف: عبدالله علي الكبير و محمد احمد حسب الله و هاشم محمد الشاذلي، دار صادر، ط٣، بيروت، ١٩٩٤.

الانترنيت:

- العتبات النصية_ قراءة في عناوين الديوان الشعري العربي المغربي، حسن الرموتي، موقع مغرس على شبكة الانترنيت، ٢٠٠٩/٦/١٨.

الرسائل والأطاريح:

- العتبات النصية في شعر عبدالوهاب البياتي ونزار قباني،

اطروحة دكتوراه، جاسم محمد جاسم خلف، بإشراف: أ. د

ابراهيم جنداري جمعة الجميلي، جامعة الموصل، كلية التربية،

قسم اللغة العربية، ٢٠٠٧.